حديث المشرق والمغرب فى القرآن

من عيوبنا أننا لا ننال القسط الكافى من الثقافة الإسلامية ، ولذلك يظل كثير منا على جهل بمعظم أمور الدين ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، مع أنه فى أمة الإسلام هو العماد والسناد ومصباح الرشاد ، ومع أنه الكتاب الذى قال فيه رب العالمين : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » . (الجن الآية ١) .

وقال فيه خاتم المرسلين : « هو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق (أى لا يبلى) على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » .

أقول هذا بمناسبة أن شاباً مسلماً جاءنى يقول : « إن القرآن يتناقض مع نفسه » ! !

هكذا عبَّر الشاب فى قلق وارتياب .

فسألته : وكيف كان ذلك يا بُنى ؟

فقال : إنه فى سورة يقول : « ربّ المشرِق والمغرِب » (المزمل الآية ٩) ،

وفى سورة أخرى يقول : « ربّ المشْرِقَيْن وربّ المغْربيْن » (الرحمن ١٧) ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ .

قلت له : هوِّن عليك ، فالعيب منا وليس من القرآن الكريم ، لأننا لم نقرأه ، وحين قرأناه لم نتدبره ، ولو فعلنا ذلك على وجهه لما سألنا مثلَ هذا السؤال ، والله تعالى يقول : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً » (النساء الآية ٨٢) .

ثم قلتُ له : إن القرآن لم يذكر المشرق والمشرقين فقط ، ولم يذكر المغرب والمغربين فقط ، بل ذكر المشرق ، والمشرقين ، والمشارق ؛ وذكر المغرب ، والمغربين ، والمغارب ، ومع ذلك لا تعارض ولا تناقض ولا اختلاف .

لقد قال القرآن الكريم فى سورة البقرة : « وللّه المشْرِقُ والمغْرِبُ فأيْنَما تولُّوا . فَثَمَّ وجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (الآية ١١٥) وقال فى سورة المزمل : « ربُّ المشْرِق والمغْرِبِ لَا إلٰهَ إلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً » . وقال فى سورة البقرة : « قُلْ للهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (الآية ١٤٢) . والمشرق حيث تطلع الشمس ، والمغرب حيث تغيب ، ويكنى بالمشرق والمغرب عن الدنيا كلها ؛ والمراد بهذه الآيات وأمثالها تقرير أن الجهات كلها لله ، وكلها مخلوقة لله ، وكلها خاضعة لجلال الله : « هَـٰذَا خَلْقُ اللهِ فأَرُونِى ماذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » ؟ (لقمان الآية ١١) .

ويتعرض الإمام الرازى لمعنى قوله تعالى : « ولِلّهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ » فيقول فيما يقول : « أى هو خالقهما ومالكهما ، وهو كقوله : « رب المشرقين ورب المغربين » ، وقوله : « بربّ المشَارِق والمغَارِب » (المعارج الآية ٤٠) . ثم إنه سبحانه أشار بذكرهما إلى ذكر ما بينهما من المخلوقات ، كما قال : « ثمّ اسْتَوَى

إلى السَّماءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وللأرْضِ ائتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنَا طائِعِينَ » .
(فصلت الآية ١١) .

والله وحده – لذلك – هو المعبود الحق ، وحيثما اتجه الإنسان وجد عظمة الله وجلاله ، ووجد خَلْقه ورزقه ، وهوسبحانه الذى يهدى إلى صراط التوحيد والإخلاص ، وعقيدة التنزيه واليقين .

والإشارة إلى المشرق والمغرب فيها تذكير بالشروق والغروب . وفيها تذكير بالليل والنهار يتواليان ويتعاقبان ، ولا شك أن تواليهما فى نظام مطرد واتساق محكم ، دليل أى دليل على قدرة الله عز وجل : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وتُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيْل ، وتُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ، وتُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ ، وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِساب » (آل عمران ٢٧) .

« لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ ، وكلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون » (يس الآية ٤٠) .

* * *

والقرآن المجيد يقول أيضاً فى سورة الرحمن : « رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

والمراد بالمشرقين مشرق الشمس ومشرق القمر ، وبالمغربين مغرب الشمس ومغرب القمر . أو المراد هو مشرق الشمس فى الشتاء ، ومشرقها فى الصيف ، وكذلك مغربها فى الشتاء ومغربها فى الصيف .

ولقد جاء فى الجزء الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » أن الإمام الألوسى يقول : « والمعوَّل ما عليه الأكثرون من مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن مقتضى ذلك أن يكون الله سبحانه ربَّ ما بينهما من الموجودات » واختار ذلك أيضاً كتاب « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » . ويعلق

obeikandl.com

الخبراء من العلماء على ذلك بقولهم : « قد يكون المراد هنا مشرق الشمس والقمر ومغربيهما ، ومن ثمَّ تكون الإشارة إلى آية الليل وآية النهار ؛ ويصح أن تكون الإشارة هنا إلى الشمس وحدها ، وهى عماد الحياة فى هذا الكوكب الأرضى ، فيكون المقصود هو مشرق الشتاء ومغربه ، ومشرق الصيف ومغربه كما ذهب كثير من المفسرين .

وترجع هذه الظاهرة إلى ميل محور دوران الأرض على مستوى مدارها حول الشمس بمقدار ٢٣,٥ درجة . لذلك فإن النصف الشمالى من الكرة الأرضية مثلا يميل نحو الشمس فى الصيف ، فيطول النهار ويقصر الليل ، حتى يبلغ ذلك أقصى مداه ، فتظهر الشمس مشرقة أو غاربة على أقصى بُعد شمالى من المشرق والمغرب الصادقين ، ثم تقفل راجعة يوماً بعد يوم حتى تبلغ المشرق والمغرب الصادقين عند الاعتدال الخريفى ، ثم يأخذ هذا النصف فى الميل عن الشمس ، فيطول الليل ويقصر النهار ، وتستمر الشمس فى تأخرها الظاهرى نحو الجنوب ، حتى تبلغ مدى بُعدها إلى الجنوب فى قمة الشتاء .

ثم ترتد الشمس إلى الشمال يوماً بعد يوم ، حتى تبلغ المشرق والمغرب الصادقين فى الاعتدال الربيعى ، وهكذا ...

ويصدق عكس هذا جميعه فى نصف الكرة الجنوبى ، كما أن هذه الظواهر تبدو بصورة متطرفة كلما اقتربنا من أقصى الشمال أو أقصى الجنوب .

ولا شك أن فى هذا التدبير المحكم صلاحاً لأحوال الأحياء على الأرض ، إذ منه تحصل الفصول المناخية ، وما يترتب عليها من مواسم الزرع والحصاد ، وكافة صور التباين الموسمى فى نشاط الإنسان والحيوان والنبات » .

وهكذا يأتى العلم بعد مئات ومئات من السنين موافقاً لما فى القرآن الكريم ، وهذا يذكِّرنا بقول الحق جل جلاله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى

يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

وقد يقول قائل :

وما الحكمة فى اختصاص مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف بالذكر ، مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب ، يخالف بعضها البعض ؟

ويجيب الإمام الرازى بقوله : « غاية انحطاط الشمس فى الشتاء ، وغاية ارتفاعها فى الصيف ، والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما ، فهو كما يقول القائل فى وصف ملك عظيم : له المشرق والمغرب ، ويُفهم منه أن له ما بينهما أيضاً » .

* * *

وكذلك يقول القرآن الكريم فى سورة المعارج : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون » .

والمراد بالمشارق هنا هو مطلع الشمس كل يوم ؛ لأن للشمس مشرقاً كل صباح ، كما يرى ذلك كل مبصر . والمراد بالمغارب هو مغرب الشمس كل يوم ، ففى كل مساء تغرب الشمس وتغيب ؛ وكذلك يقال عن القمر المتعدد المشارق والمغارب .

وقيل إن المراد هنا هو مشارق الشمس ومغاربها فى الفصول المتعددة المتوالية فإنها تختلف ما بين شتاء وربيع ، وصيف وخريف .

وقيل إن المراد هو مشارق النجوم والكواكب ومغاربها ، فكل نجم يشرق فيظهر ويتجلى ، ويغرب فيغيب ويحتجب . ويقول الرازى عن هذه الآية الكريمة : « يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبى ، وبالمغرب موته ، أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات » .

وكل هذه الأقوال لا يتعارض واحد منها مع الآخر ، لأن كلمتى المشرق والمغرب تشمل كل هذه المعانى وتضمها ، على سبيل الحقيقة أو المجاز : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

والحديث عن المشارق والمغارب يذكّرنا بأن الله جل جلاله هو المالك لمشرق كل نجم ومغربه ، فهو المتصرف فيه إيجاداً وإعداماً ، وإبداءً وإخفاء ؛ وهو القيِّم المهيمن على ما بين المشارق والمغارب ، أى على أرجاء هذا الكون العريض الوسيع الذى يشمل الأرض والسموات ، وما وراء الأرض والسموات : بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

ولو أننا تعمقنا فى تصورنا لحركة الأرض أمام الشمس لأدركنا أنه يحدث – فى كل لحظة – شروق وغروب على بقاع الأرض الممتدة المستديرة ، وذلك أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، فيطلع مشرق ويختفى مغرب ، وهكذا دواليك دون انقطاع .

ولقد ورد فى الجزء الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » تصوير حبراء العلم للمشارق والمغارب ، ومنه قولهم : « ترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق .

ومن ثَمَّ تبدو لنا تلك الأجرام متحركة فى قبة السماء عكس ذلك الاتجاه ، مشرقة على الأفق الشرقى ، وغاربة من الأفق الغربى ، أو على الأقل دائرة من الشرق إلى الغرب حول النجم القطبى ، فى نصف الكرة الشمالى مثلا .

وإذا كان البعد القطبى للنجم أصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لا يشرق ولا يغرب ، بل يرسم دائرة صغيرة وهمية حول القطب الشمالى ، وبذلك تشير الآية كذلك إلى ساعات الليل . وظاهرة الشروق والغروب إشارةٌ إذن إلى دوران كرة الأرض ، وهى نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب ،

فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة ، وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر ، وهذا مالا تستقيم معه الحياة كما نعهدها .

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها ، دون سائر النجوم والكواكب ، كانت هذه إشارةً إلى التعدد اللانهائى لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم ، فى كل موضع على سطح الأرض ، أوحتى فى كل لحظة من لحظات الزمان تمر على الكرة الأرضية ، فالشمس فى كل لحظة غاربة عند نقطة ، ومشرقة فى نقطة أخرى تقابلها ، وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته » .

والشروق والغروب ظاهرتان متجددتان كل يوم ، بإحداهما يبدأ النهار ، وبالأخرى ينتهى ، وبين الشروق والغروب . ساعات تقبل ثم تمضى ، وفرص تتهيأ ثم تتفلت ، والمؤمن ابن وقته ، وخير الناس من أخذ من شبابه لهرمه ، ومن قوته لضعفه ، ومن غناه لفقره ، ومن يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته .

ولعل الله جل جلاله لم يحدد المراد بكل لفظ من الألفاظ السابقة : المشرق ، والمشرقين ، والمشارق ، ثم المغرب ، والمغربين ، والمغارب ، لكى يثير الأذهان ويحرك العقول إلى البحث والنظر والتأمل والتدبر ، وبذلك يشعر الإنسان بقيمة عقله ، وعلو كرامته عند ربه ، ويصدق عليه قوله سبحانه : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ والبَحْرِ ، ورَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّباتِ ، وفضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنا تفْضِيلاً » (الإسراء الآية ٧٠) .

والقرآن الكريم يحرض أهله أشدَّ التحريض فى آيات كثيرة ، على استعراض ملكوت السموات والأرض ، لمعرفة الحقائق ، وكشف الدقائق ، واستخدام القُوى والطاقات ، ومن ذلك قوله : « وفى الأرْضِ آياتٌ للمُوقِنِينَ ،

وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرُونَ ، وفي السَّماء رِزقكُم وما تُوعَدُونَ ، فَوَربِّ السَّماء والأَرْضِ إِنَّه لحق مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » (الذاريات الآيات ٢٠ – ٢٣) .

آمنا برب المشرق ورب المغرب ، وآمنا برب المشرقين ورب المغربين ، وآمنا برب المشارق ورب المغارب ؛ وآمنا بالقرآن أعلى بيان : « الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ القرآنَ ، خَلَقَ الإنْسانَ ، علَّمَه البَيَانَ » (سورة الرحمن الآيات من ١ – ٤) .

obeikandl.com